شبهة ورد: البداء فی کفة المیزان (2)

نویسنده: معرفت،محمد هادی
فلسفه و کلام :: رسالة الثقلین :: خرداد 1375 - شماره 17 و 18
از 130 تا 158
آدرس ثابت : http://www.noormags.com/view/fa/articlepage/138120

دانلود شده توسط : آهو خرس
تاریخ دانلود : 1393/06/01 19:43:31

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائهٔ مجلات عرضه شده در پایگاه،مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه قوانین و مقررات استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.

پایگاه مجلات تخصصی نور

www.noormags.com

البداء في كفّة الميزان (٢)

شبهة ورد

* الشيخ
محمد هادي معرفة

موضعه من صفات الجمال والجلال[(١)]

وبعد فالبداء من صفاته تعالىٰ امتداد عريض لصفات العلم والقدرة والتدبير، امتداداً فيما لا يزال، وأنه تعالىٰ يتصرّف في خلقه ما يشاء وفق حكمته في الإبداع والإيجاد ﴿كل يوم هو في شأن﴾[(٢)]، ﴿فعّال لما يريد﴾[(٣)]، ﴿يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾[(٤)].

وأيضاً هو دحض صريح لشبهة يهودية زعمت أنّ يد الله مغلولة، وأنه جفّ القلم بما رقم[(٥)] ﴿غلّت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[(٦)]، ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب﴾[(٧)]، ﴿يزيد في الخلق ما يشاء وهو علىٰ كل شيء قدير﴾[(٨)].

الامر الذي اوجب تفخيم شأن البداء في صفات جلاله تعالىٰ وجماله، وتنزيه ساحة قدسه عما يقول الظالمون.

ففي الحديث عن الامام جعفر بن محمد الصادقؑ بإسناد صحيح قال: «ما عُظّم الله بمثل البداء» أو «ما عبد الله بشيء مثل البداء»[(٩)].

وروىٰ الشيخ بإسناده إلىٰ هشام بن سالم عن الامام ابي عبد الله الصادقؑ في قوله تعالىٰ: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة...﴾ قال: «كانوا يقولون: قد فرغ من الأمر»[(١٠)].

وأما احاديث جفّ القلم بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، فلا مقدور بعد سبق

(١) صفات الجمال صفات ثبوتية توصف ذاته المقدسة بها وصف كمال وتحميد وتمجيد، كالحياة والعلم والقدرة، وصفات الجلال صفات سلبيّة تجلّ ذاته المقدسة عن الاتصاف بها، وهي صفات تنزيه وتقديس، كنفي التركيب والجسمية والافتقار.

(٢) الرحمٰن: ٢٩.

(٣) البروج: ١٦.

(٤) الروم: ٥٤.

(٥) راجع: صحيح البخاري، باب القدر ٨: ١٥٢.

(٦) المائدة: ٦٤.

(٧) الرعد: ٣٩.

(٨) فاطر: ١.

(٩) الكافي ١: ١٤٦، ح١.

(١٠) بحار الانوار ٤: ١١٣، ح٣٥.

www.noormags.com

تقدير، فهي من مزاعم القدريّة، الناشئة من عقيدة الجبر في الحياة، اوردها اصحاب الحديث ضمن روايات القدر(١١).

روىٰ البخاري بإسناده إلىٰ ابي هريرة أنه سأل النبيﷺ عما يلاقيه من العنت في امر الزواج ولا يجد ما يتزوج به، فليرخّص له في الاستخصاء، فسكت عنه ثلاث مرات، وفي المرة الرابعة قال له النبيﷺ: «يا ابا هريرة جفّ القلم بما أنت لاقٍ، فاختصِ علىٰ ذلك أو ذَر».

اورده البخاري في كتاب النكاح، وفي كتاب القدر في باب جفّ القلم علىٰ علم الله.

وروىٰ عن عمران بن حُصين قال: «قال رجل لرسول اللهﷺ: يا رسول الله، أيُعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم. قال: فلِمَ يعمل العاملون؟ قال: كل يعمل لما خلق له» أو «لما يُسّر له»(١٢).

قال ابن حجر العسقلاني في الشرح: «معنىٰ جفّ القلم: فرغت الكتابة، اشارة إلىٰ أن الذي كتب في اللوح المحفوظ لا يتغير حكمه، فهو كناية عن الفراغ من الكتابة؛ لأن الصحيفة حال كتابتها تكون رطبة أو بعضها وكذلك القلم، فإذا انتهت الكتابة جفت الكتابة والقلم... وفيه اشارة إلىٰ أن كتابة ذلك انقضت من امد بعيد».

وقال في مفتتح الباب نقلاً عن السمعاني: «القدر سر من أسرار الله تعالىٰ اختص العليم الخبير به وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم، فلم يعلم نبي مرسل ولا ملك مقرّب»(١٣).

ثم قال: «واخرج مسلم من طريق طاووس: أدركت ناساً من اصحاب رسول اللهﷺ يقولون: كل شيء بقدر. وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله: كل شيء بقدر حتىٰ العجز والكيس»(١٤).

قال ابن حجر: «ومعناه أن كل شيء لا يقع في الوجود إلا وقد سبق به علم الله ومشيئته». قال: «وهذا الذي ذكره طاووس ... مطابق لقوله تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾(١٥)؛ فإن هذه الآية نصّ في أن الله خالق كل شيء ومقدّره، وهو أدلّ من قوله تعالىٰ: ﴿خالق كل شيء﴾(١٦)، وقوله تعالىٰ: ﴿والله خلقكم وما

(١١) اوردها اصحاب الصحاح الست بألفاظ وتعابير مختلفة، كلها تنمّ عن سلطان القدر علىٰ تصرفات الإنسان، فلا تتغير عما سجله قلم التقدير في الأزل؛ فهذا الامام احمد اورده في مسنده تارة بلفظ «رفعت الاقلام وجفت الصحف» (١: ٢٩٣)، واخرى بلفظ «رفعت الاقلام وجفت الكتب» (١: ٣٠٣). وثالثة بلفظ «قد جفّ القلم بما هو كائن» (١: ٣٠٧) وكلها عن ابن عباس، ورابعة: «جف القلم علىٰ علم الله»، وخامسة: «جف القلم بما هو كائن» (٢: ١٧٦ و١٩٧) وكلاهما عن عبد الله بن عمرو، وهكذا الترمذي وابن ماجة والنسائي وغيرهم.

(١٢) راجع: البخاري ٧: ٥، كتاب النكاح، الباب ٨، و٨: ١٥٢، كتاب القدر الباب ٢.

(١٣) إذا كان القدر سرّاً غامضاً لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب فكيف يا ترى يمكن الاعتقاد به، والعقيدة جزم وعزيمة؟! نعم إنما كان لا يعلمه أحد، لأنه لا واقع له، بل لا يعلمه الله أيضاً ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض﴾ (يونس: ١٨).
يقول الاستاذ احمد امين عند كلامه عن المعتزلة: «وعلىٰ كل

www.noormags.com

حال كان مسلك المعتزلة مسلكاً لابد منه؛ لأنه اشبه بردّ فعل لحالة بعض العقائد في زمنهم؛ لقد قرروا سلطان العقل وبالغوا فيه امام من لا يقر للعقل بسلطان، بل يقول نقف عند النص.. وقال المعتزلة بحرية الارادة وغلوا فيها أمام قوم سلبوا الانسان ارادته، حتى جعلوه كالريشة في مهب الريح أو كالخشبة في اليمّ... وفي رأيي أنه لو سادت تعاليم المعتزلة إلى اليوم، لكان للمسلمين موقف آخر في التاريخ غير موقفهم الحالي، وقد اعجزهم التسليم وشلّهم الجبر وقعد بهم التواكل» (ظهر الاسلام ٣: ٧٠).

(١٤) الكَيس - بفتح الكاف - ضد العَجْز. قال ابن حجر: «ومعناه الحذق في الامور» ويتناول امور الدنيا والآخرة.

(١٥) القمر: ٤٩.

(١٦) الرعد: ١٦.

(١٧) الصافات: ٩٦.

(١٨) الحجر: ٢١.

(١٩) هو عبد الله بن عمرو بن العاص. أسلم قبل ابيه، وكان اسمه العاص فغير رسول الله ﷺ اسمه إلى عبد الله، وكان مفسراً للقرآن ويراجع أهل الكتاب، وهو أول من اعتمد الاسرائيليات في التفسير وفي الحديث عن الخليقة، مما ذكرناه في

تعملون﴾[١٧]. واشتهر على ألسنة السلف والخلف أنّ هذه الآية نزلت في القدرية، وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة: جاء مشركو قريش يخاصمون النبي في القدر فنزلت».

قال: «ومذهب السلف قاطبة أن الامور كلها بتقدير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾[١٨]».

وقال في باب جفّ القلم على علم الله: «هذا لفظ حديث اخرجه أحمد، وصححه ابن حبان من طريق عبد الله بن الديلمي عن عبد الله بن عمرو[١٩]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله عزّوجلّ خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذٍ اهتدى، ومن أخطأه ضل: فلذلك اقول: جف القلم على علم الله، أو جف القلم بما هو كائن».

وقال: «إن عبد الله بن طاهر امير خراسان للمأمون سأل الحسين بن الفضل[٢٠] عن قوله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾[٢١] مع هذا الحديث، فأجاب: هي شؤون يُبديها، لا شؤون يبتديها[٢٢] فقام اليه وقبّل رأسه»[٢٣].

وهذا الذي ذكره الحسين بن الفضل تأويل ظاهري لمسألة البداء على ما هو معروف، وقد سبق عن ابن حجر في شرح حديث الاقرع والابرص والاعمى.

وخلاصته: أنّ كونه تعالى كلَّ يوم في شأن، إنما هو في ظاهر الأمر، حيث مظاهر الكون في تغيير وتحوّل مستمرّ، وكل شيء هو في خلق جديد؛ أما الواقع فكل ما بالوجود مقدَّر في الازل معلوم حدوثه في ظرفه الخاص، علماً تعلق به في الازل القديم؛ فكل جديد إنما هو جديد في ظاهره، لكنه قديم في علم الله وتقديره[٢٤].

غير أن هذا التأويل لا يلتئم مع العقيدة بديمومة تدبيره تعالى، وأنه تعالى ربّ العالمين ربوبية بالفعل، ومستمرة مع استمرار الوجود، إنه تعالى خالق كل شيء ولا مؤثر في الوجود إلّا الله، ولا يزال في ابداع وخلق وايجاد فياضاً على الاطلاق.

وقال الامام الرازي عند تفسير آية المحو والإثبات: «فإن قال قائل: ألستم

www.noormags.com

تزعمون أن المقادير سابقة قد جفّ بها القلم وليس الامر بأنف، فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والاثبات؟!

قلنا: ذلك المحو والاثبات أيضاً مما جفّ به القلم، فلا يمحو إلا ما سبق في علمه وقضائه محوه»(٢٥).

وهذا أيضاً ناظر إلى ما ذكره ابن الفضل من التأويل.

ومن الغريب أنه نسب إلى الشيعة ـ وسمّاهم الرافضة ـ القول بالبداء بمعناه الباطل، وهو أن يعتقد شيئاً ثم يظهر له أن الامر بخلاف ما اعتقده(٢٦).

غير أن هذا تفسير من عنده وافتراء على الشيعة ما لم يقولوه؛ لأنهم في عقيدة البداء تمسّكوا بآية المحو والإثبات ـ على ما صرح به الرازي نفسه ـ فإذا كانت الآية ذات تأويل معقول ومعروف لدى عامة المسلمين، فياترى كيف يظنّ هذا الامام بالشيعة لا غير أنّهم يفسرونها على غير وجهها المعروف؟!

قال تعالى: ﴿ يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إن بعض الظن اثم﴾ (٢٧).

وهذا التأويل الذي تبنّاه الامام الرازي واسلافه واخلافه لآية المحو والإثبات، محاولاً أن يلائم بينها وبين حديث جفّ القلم بما رقم، إنما ينسجم مع عقيدة الجبر في التقدير، فما قدّر في الأزل لا يتغير مع الأبد.

وهذا بعينه نفس قولة اليهود: يد الله مغلولة، وأنّ الله قد فرغ من الامر، فلا نسخ في شريعة ولا بداء في خليقة؛ فلا محو لما اثبته التقدير، ولا اثبات لما لم يثبته قلم التدبير في الأزل؛ فقد جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

ومن الغريب أنه حاول تبرير قولة اليهود تلك أو إنكارها رأساً. قال: «في هذا الموضع إشكال، وهو أن الله تعالى حكى عن اليهود أنهم قالوا ذلك، ولا شك أن الله صادق في كل ما اخبر، ونرى اليهود مطبقين متفقين على أنا لا نقول ذلك ولا نعتقده البتة.

وأيضاً المذهب الذي يحكى عن العقلاء لابد أن يكون معلوم البطلان بضرورة العقل، والقول بأنّ يد الله مغلولة قول باطل ببديهية العقل... وإلّا فكيف يمكنه ـ مع القدرة الناقصة ـ حفظ العالم وتدبيره؟

اذن حصل الإشكال الشديد في تصحيح هذا النقل والحكاية.

www.noormags.com

موضعه مات سنة ٦٥ وهو ابن ٧٢. (الاصابة ٢: ٣٥٢.

(٢٠) الحسين بن الفضل البجلي الكوفي العلامة المفسر أبو علي نزيل نيسابور. قال ابن حجر: «كان من كبار أهل العلم والفضل. قال الحاكم: كان امام عصره في معاني القرآن، وانزله عبد الله بن طاهر في الدار التي ابتاعها له سنة ٢١٧، فبقي فيها يعلم الناس العلم ٦٥ سنة، ومات وله ١٠٤ سنين» (لسان الميزان ٢: ٣٠٨).

(٢١) الرحمن: ٢٩.

(٢٢) أي كل يوم يبدي ما سبق في علمه، لا أنه تعالى يستأنف خلقاً جديداً لم يكن في سابق علمه.

(٢٣) فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر. راجع: ١١: ٤١٦ و٤٣٠ ـ ٤٣١، و٩: ١٠٣ وهذه القصة حكاها الزمخشري في تفسير الكشاف ٤: ٤٤٨، في ذيل الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

(٢٤) وللمولى صدر الدين الشيرازي تأويل لحديث جف القلم يشبه تأويل ابن الفضل، سوى أنه يجعل الحديث ناظراً إلى واقع الأمر، حيث كان مسرح الوجود بأسره منخلعاً عن الزمان والمكان، وكل شيء هو ثابت العين في حقيقته الواقعية لا تجدد فيه ولا تغير، وإنما هذا التحول

ثم أخذ في حل الاشكال من وجوه:

الاول: لعل القوم إنما قالوها على سبيل الجدل والالزام.

الثاني: يمكن صدورها على وجه السخرية والاستهزاء، لما رأوا من الفقر المدقع في جماعة المسلمين آنذاك.

الثالث: أنهم كانوا قبل البعثة الكريمة في رفاه وثروة، ثم لما ضاقت عليهم الارض بما رحبت قالوا هذه الكلمة بمعنى أنه تعالى بخل في عطائه بالنسبة اليهم.

الرابع: أنها قولة صدرت على مذاهب أهل الفلسفة القائلة بأنه تعالى موجب لذاته، فلا يصدر منه شيء إلّا على نهج واحد، فلا يقدر تعالى على تغييره، فعبروا عن عدم الاقتدار بغل اليدين[٢٨].

الخامس: أن المراد كفه تعالى عن تعذيبهم في الآخرة إلّا بقدر ما عبدوا العجل»[٢٩].

قلت: كل هذا تكلف وتأويل بعيدان عن مساق الآية الكريمة.

إنّ غل اليد وإن كان تصح الكناية به عن البخل أو الفقر المدقع، كما أن بسطها يكون حينئذاك كناية عن السخاء في الإنفاق على ما ورد في قوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾[٣٠]، فإنه لا دليل في ذلك على الانحصار؛ فإن استخدام هذين التعبيرين شائع أيضاً في معنى العجز والاقتدار، بل لعله الاصل في ارادة البخل والسخاء، كان البخيل قيد يديه فأعجز نفسه، أما السخيّ فمطلق اليدين ينفق كيف يشاء.

وفي الآية ٦٤ من المائدة شهادة بينة على ارادة قيد العجز ضد الاقتدار؛ بدليل الدعاء عليهم: ﴿غلّت ايديهم﴾؛ إذ ليس المراد أن يبخلوا، بل أن يُسلبوا القدرة على أي شيء.

قال الراغب: «﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ ذمّوه بالبخل. وقيل: إنهم لما سمعوا أن الله قد قضى كلّ شيء قالوا: إذن يد الله مغلولة أي في حكم المقيد؛ لكونها فارغة».

وقال علي بن ابراهيم في تفسير هذه الآية: «قالوا: قد فرغ الله من الامر، لا

(٢٥) التفسير الكبير ١٩: ٦٥ ـ ٦٦.

(٢٦) المصدر السابق: ٦٦.

(٢٧) الحجرات: ١٢.

(٢٨) أنكر العلامة الطباطبائي صحة نسبة هذا المذهب إلى الفلاسفة، وأنهم يتبرأون من ذلك.

(٢٩) التفسير الكبير ١٢: ٤٠ ـ ٤١.

(٣٠) الاسراء: ٢٩.

www.noormags.com

يحدث الله غير ما قدّره في التقدير الاول، فرد الله عليهم، وأنه تعالىٰ يقدم ويؤخر ويزيد وينقص وله البداء والمشيئة»[٣١].

وروىٰ الشيخ في اماليه بإسناده المتصل إلىٰ هشام بن سالم عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ أنه قال: «كانوا يقولون: قد فرغ من الامر»[٣٢].

وقال الامام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام لسليمان بن حفص المروزي متكلّم خراسان[٣٣] عندما رآى منه استعظام امر البداء: «أحسبك ضاهيت اليهود في هذا الباب؟ قال: أعوذ بالله من ذلك، وما قالت اليهود؟ قال: قالت اليهود: ﴿يد الله مغلولة﴾ يعنون أنّ الله قد فرغ من الامر فليس يحدث شيئاً»[٣٤].

فبسط اليد هنا كنايةٌ عن اقتداره تعالىٰ علىٰ الخلق والابداع فيما لا يزال، وأنه ربّ العالمين، يدبر الأمر تدبيراً متواصلاً كيف يشاء، وفق المصالح والمقتضيات، وهو العليم القدير.

هذا، وقد ورد حديث جفّ القلم في أحاديثنا أيضاً، ولكن بمعنىً غير ما ورد في احاديث القوم.

روىٰ الحميري عن البزنطي فيما رواه عن الامام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام قال: «سمعته يقول: جفّ القلم بحقيقة الكتاب من الله بالسعادة لمن آمن واتقىٰ، والشقاء لمن كذب وعصىٰ»[٣٥].

السعادة هنا هي طيب المعيشة وطمأنينة القلب في مُتع الحياة؛ فإن المؤمن يعيش رحب الصدر فارغ البال في مزاولة الحياة، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله إلّا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[٣٦].

وهذا بفضل ايمانهم وتوكلهم علىٰ الله ﴿ومن يتوكل علىٰ الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾[٣٧].

أما الذي لا يؤمن بالله العظيم ولا يرىٰ لعظيم قدرته أثراً في الخلق والتدبير، فإنه يعيش قلق البال مشوش الخاطر وفي ضنك من العيش وحرج شديد؛ حيث لا يأمن أهوال الحياة وصدمات المسير: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾[٣٨]، ﴿ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾[٣٩].

(٣١) البحار ٤: ٩٨، ح٦، ويراجع تفسير القمي ١: ١٧١، وهكذا روىٰ العياشي عن حماد عن الصادق عليه السلام (البحار ٤: ١١٧ ح٤٩).

(٣٢) المصدر السابق: ١١٣، ح٣٥، ويراجع الامالي للشيخ الطوسي ٢: ٦٧٣، ح١٨.

(٣٣) من أصحاب الرضا عليه السلام وقد أدرك الجواد والهادي عليهما السلام كان من أجلّاء علماء خراسان ومتكلميهم وكان ذا منزلة عند الأئمة عليهم السلام وكانت له مكاتبات إليهم واسئلة في شتىٰ المسائل في اصول المعارف. ويظهر من الصدوق توثيقه. راجع المامقاني ٢: ٥٦، الرقم ٥١٩٢.

(٣٤) البحار ٤: ٩٦، ح٩، نقلاً عن عيون اخبار الرضا للصدوق ١: ١٤٥، الباب ١٣، ح١.

(٣٥) قرب الاسناد: ١٥٦.

(٣٦) الرعد: ٢٨.

(٣٧) الطلاق: ٣.

(٣٨) طه: ١٢٤.

(٣٩) الانعام: ١٢٥.

www.noormags.com

ولعل بهذا المعنى أيضاً ما رواه الصدوق باسناده إلى الحسن البصري عن عبد الله بن عمر رفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله قال: «سبق العلم وجفّ القلم وتم القضاء بتحقيق الكتاب وتصديق الرسالة، والسعادة من الله، والشقاء من الله عزّوجلّ»(٤٠).

(٤٠) التوحيد: ٣٤٠، ح ١٠، والبحار ٥: ٤٨، ح ٧٩.

دلائل وآيات

دلائل ثبوت البداء في التكوين:

قال الشيخ أبو عبد الله المفيد رحمه الله: «اقول في البداء ما يقوله المسلمون بأجمعهم في النسخ وامثاله من الإفقار بعد الإغناء، والإمراض بعد الإعفاء، والإماتة بعد الإحياء، وما يذهب اليه أهل العدل خاصّة من الزيادة في الآجال والأرزاق والنقصان منها بالأعمال.

فأمّا اطلاق لفظ البداء، فإنّما صرت اليه بالسمع الوارد عن الوسائط بين العباد وبين الله عزوجلّ.

ولو لم يرد به سمع اعلم صحته ما استجزت اطلاقه، كما أنه لو لم يرد عليّ سمع بأنّ الله تعالى يغضب ويرضى ويحب ويعجب، لما اطلقت ذلك عليه سبحانه، ولكنه لما جاء السمع به صرت اليه، على المعاني التي لا تأباها العقول».

قال: «ولس بيني وبين كافة المسلمين في هذا الباب خلاف، وإنما خالف من خالفهم في اللفظ دون ما سواه».

قال: «وهذا مذهب الامامية بأسرها، وكل من فارقها في المذهب ينكره على ما وصفت من الاسم دون المعنى»(٤١).

(٤١) اوائل المقالات: ٥٣ ـ ٥٤.

ثم إنه رحمه الله بيّن معنى البداء وفسره تفسيراً يتوافق مع ضوابط الأصول، في شرحه على رسالة اعتقادات الصدوق رحمه الله واستوفى الكلام فيه(٤٢) مستنداً إلى دلائل الكتاب والسنة الشريفة، نستخلصه فيما يلي:

(٤٢) راجع: تصحيح الاعتقاد ٢٤ ـ ٢٦.

قال تعالى: ﴿لكل اجل كتاب * يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده امّ الكتاب﴾(٤٣).

(٤٣) الرعد: ٣٨ ـ ٣٩.

هذه أصرح آية بشأن التغيير في التقدير، حسبما يشاء الله وفق حكمته في الخلق والإبداع، وأنه تعالى لم يكن قيد تقديره الأوّل في الأزل الذي كان على

www.noormags.com

سنن جري الامور في مجاريها الذاتية الأوّليّة، (سنن العلل والمعاليل في مجاري طبيعة الوجود)؛ فإذا ما تجددت مصالح ومقتضيات، على خلاف مجرى الطبيعة الأولى، فعند ذلك يتجدد التقدير ويتغير القضاء الإلهي بما يتوافق مع مصالح الوقت.

فالآجال مقدَّرة في الأزل، وكل أجل له تقدير قديم، لكن الله قد يمحو ما اثبته قلم التقدير الأوّل، ويثبت ما لم يقدّره في الأزل وفق ما تقتضيه حكمته في الخلق والتدبير، وكل هذه التغييرات والتحوّلات كانت معلومة لديه تعالى في كتابٍ مكنون وعلمٍ مخزون (اللوح المحفوظ) لا يعلمه غير الله.

روى الصدوق بإسناده إلى هشام بن سالم وحفص بن البختري وغيرهما جميعاً عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في هذه الآية، قال: «وهل يمحو الله إلّا ما كان، وهل يثبت إلّا ما لم يكن؟»(٤٤).

(٤٤) رسالة التوحيد: ٣٣٣، ح٤، والبحار ٤: ١٠٨، ح٢٢.

ولعلك تتساءل: فيم يكون التغيير بعد إحاطة علمه تعالى أزلياً في الخلق والتدبير؟

لكن نبهنا أن الأمور مقدّرة في الأزل حسب مجاري طبائعها الأولية، وحسب تسلسل عللها ومعاليلها المترتبة تسلسلاً طبيعياً حسب سنته تعالى في خلق الأشياء، ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾(٤٥).

(٤٥) القمر: ٤٩.

غير أن من الاشياء ما يكون تقديره محتوماً، ومنها ما يكون موقوفاً؛ فالحتمي يقع في موقعه، جرياً مع تسلسل مجراه لا يدافعه شيء ولا يعترض طريقه شيء، هكذا علمه الله في الأزل، فيجري وفق علمه تعالى بلا مانع ولا رادع.

أما الموقوف فهو المشروط بما إذا لم يعترض طريقه شيء يخالف مجراه الذاتي الأوّلي؛ فإذا عارضه تغير مجراه عما كان يقتضيه ظاهر الامر، إذ قد تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾.

روى البرقي بإسناده إلى فضيل بن يسار قال: «سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: من الامور امور موقوفة عند الله، يقدم منها ما يشاء ويؤخر منها ما يشاء ويثبت

www.noormags.com

منها ما يشاء»(٤٦).

وسوف نتعرض لبيان الأجلين المحتوم والموقوف، عند الكلام عن قوله تعالىٰ: ﴿ثم قضى اجلاً واجل مسمى عنده﴾(٤٧).

وقد ورد في رواياتنا الإسلامية أن هذا التحوّل والتغيير في المشيئة والتدبير، إنما يحصل كل سنة في ليلة القدر من شهر رمضان، فيمحىٰ ما يمحىٰ ويثبت ما يثبت حسبما تقتضيه المصالح الجارية في تلك السنة، فكانت ليلة تقديرٍ لمقدّرات ذلك العام.

قال تعالىٰ بشأن ليلة القدر: ﴿فيها يُفرق كل أمر حكيم﴾(٤٨).

قال ابن جزيّ الكلبي (ت ٧٤١): «معنىٰ يُفرق يُفصل ويُخلص. والأمر الحكيم أرزاق العباد وآجالهم وجميع امورهم في ذلك العام، نسخ من اللوح المحفوظ ليمتثل الملائكة ذلك بطول السنة القابلة»(٤٩).

والفعل المضارع هنا (يفرق) يدلّنا علىٰ استمرار الفرق عبر السنين والاعوام، استدامة مع تدبيره تعالىٰ وتقديره فيما لا يزال.

قال الطبرسي: «أي في هذه الليلة يفصل ويبين، والمعنىٰ: يقضىٰ كل امر محكم لا تلحقه الزيادة والنقصان، وهو أنه يقسم فيها الآجال والأرزاق وغيرها من أمور السنة إلىٰ مثلها من العام القابل. عن ابن عباس والحسن وقتادة»(٥٠).

قال علي بن ابراهيم: «ومعنىٰ ليلة القدر أن الله يقدّر فيها الآجال والارزاق وكل امر يحدث من موت أو حياة أو خصب أو جدب أو خير أو شر، كما قال تعالىٰ: ﴿فيها يُفرق كلّ أمر حكيم﴾ إلىٰ سنة»(٥١).

قال: «وحدثني أبي عن النضر بن سويد عن يحيىٰ الحلبي عن عبد الله بن مسكان عن ابي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان ليلة القدر نزلت الملائكة والروح والكتبة إلىٰ سماء الدنيا، فيكتبون ما يكون من قضاء الله تبارك وتعالىٰ في تلك السنة، فإذا اراد الله أن يقدم أو يؤخّر أو ينقص شيئاً أو يزيده (أي عما اثبته في التقدير القديم) امر الملك أن يمحو ما يشاء، ثم أثبت الذي اراد. قلت: وكل شيء عنده بمقدار مثبت في كتابه؟ قال: نعم. قلت: فأيّ شيء يكون بعده؟ قال: سبحان الله! ثم يُحدث الله أيضاً ما يشاء تبارك وتعالىٰ»(٥٢).

(٤٦) بحار الانوار ٤: ١١٣، ح٣٧، عن كتاب المحاسن.

(٤٧) راجع: البحار ٤: ١١٦ ـ ١١٧، ح٤٤ فما بعده.

(٤٨) الدخان: ٤.

(٤٩) التسهيل لعلوم التنزيل ٤: ٣٤.

(٥٠) مجمع البيان ٩: ٦١.

(٥١) تفسير القمي ٢: ٤٣١.

(٥٢) المصدر السابق: ١: ٣٦٦ ـ ٣٦٧، والبحار ٤: ٩٩ ـ ١٠٠.

www.noormags.com

والأحاديث بشأن ليلة القدر وأن فيها يفرق كل امر حكيم كثيرة مستفيضة، دوّنتها كتب الحديث والتفسير عند أهل السنة والشيعة جميعاً[٥٣]، تدلّنا على أن الأمور المقدرة في الازل يتجدد تقديرها في كل ليلة قدر من كلّ سنة فيما يمس جانب شؤون ذلك العام، فقد يمحى ما كان ثابتاً ويُثبت ما لم يكن ثابتاً، غير أن الذي يقدر فيها يكون حتمياً ذلك العام، ومن ثم قال: ﴿فيها يفرق كلّ امر حكيم﴾ أي محكم محتوم القضاء.

(٥٣) ستوافيك الإشارة إلى بعضها.

قال ابو جعفر الطبري: «وعنى بقوله: ﴿فيها يُفرق كلّ أمر حكيم﴾ في هذه الليلة المباركة يقضى ويفصل كلّ أمر أحكمه الله تعالى في تلك السنة إلى مثلها من السنة الأخرى، ووضع حكيم موضع محكم،كما قال: ﴿الم * تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ يعني المحكم»[٥٤].

(٥٤) جامع البيان ٢٥: ٦٥.

واخرج عن طريق ربيعة بن كلثوم قال: «كنت عند الحسن فقال له رجل: يا ابا سعيد، ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: اي والله، إنها لفي كل رمضان، وإنها الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كل أجل وخلق ورزق إلى مثلها».

وعن أبي عبد الرحمن، قال: «يدبر أمر السنة في ليلة القدر»[٥٥].

(٥٥) المصدر السابق: ٦٤ ـ ٦٥.

واخرج عن طريق عبيد قال: «سمعت الضحاك يقول في قوله تعالى: ﴿لكل أجل كتاب﴾ الآية يقول: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ يقول: أنسخ ما شئت وأصنع من الأفعال ما شئت، إن شئت زدت فيها وإن شئت نقصت»[٥٦].

(٥٦) المصدر السابق ١٣: ١١٣.

وعن الأعمش عن شقيق أنه كان يقول: «اللهمّ إن كنت كتبتنا أشقياء فامحنا واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك ام الكتاب».

وعن ابي حكيمة قال: «سمعت أبا عثمان النهدي قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول وهو يطوف بالكعبة: اللهم إن كنت كتبتني في اهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبت عليّ الذنب والشقوة فامحني وأثبتني في أهل السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب».

وهكذا روى بإسناده إلى ابي وائل أنه كان كثيراً ما يدعو بهذه الكلمات.

www.noormags.com

وعن طريق ابي قلابة عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول: «اللهم إن كنت كتبتني في أهل الشقاء فامحني وأثبتني في أهل السعادة»(٥٧).

وروى العياشي بإسناده إلى حمران بن اعين قال: «سألت ابا عبد الله الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمّىً عنده﴾ فقال: هما أجلان، أجل موقوف يصنع الله ما يشاء، واجل محتوم».

ومن الأدعية المأثورة عن الأئمة الصادقين الواردة قراءتها في ليالي القدر: «اللهم اجعل فيما تقضي وتقدر من الامر المحتوم وفيما تفرق من الامر الحكيم في ليلة القدر وفي القضاء الذي لا يردّ ولا يبدل أن تكتبني من حجاج بيتك الحرام... واجعل فيما تقضي وتقدر أن تطيل عمري وتوسع علي في رزقي».

وأيضاً: «وإن كنت من الاشقياء فامحني واكتبني من السعداء، فانك قلت في كتابك المنزل على نبيك المرسل: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾».

وقال تعالى: ﴿ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمّىً عنده﴾ (٥٨).

هي أيضاً صريحة في أن هناك اجلين، اجلاً مقضيّاً حسب مجاري طبائع الأشياء واستعداداتها الذاتية في استمرار الوجود، فيقع موقعه إن لم يعترض طريقه ما يدفعه أو يمنعه عن البلوغ إلى نهاية المطاف، أو يوجب استدامته أكثر مما اقتضته ذاته، الامر الذي يكون طارئاً في مسيرة الحياة.

قال الامام الرازي بعد أن ذكر وجوهاً خمسة في تفسير الآية: «والسادس هو قول حكماء الاسلام أن لكل إنسان أجلين، أحدهما: الآجال الطبيعية. والثاني: الآجال الاختيارية.

أما الآجال الطبيعية، فهي التي لو بقي ذلك المزاج (الاستعداد الذاتي) مصوناً من العوارض الخارجية، لانتهت مدة بقائه إلى الوقت المحدّد له، وأما الآجال الاختيارية فهي التي تحصل بسبب من الأسباب الخارجية، كالغرق والحرق وغيرهما من الامور الطارئة.

وقوله: ﴿مسمّىً عنده﴾ أي معلوم عنده أو مذكور اسمه في اللوح المحفوظ»(٥٩).

وروى العياشي بإسناده إلى حصين عن ابي عبد الله عليه السلام قال: «الأجل الاول

(٥٧) المصدر السابق: ١١٢ - ١١٣.

(٥٨) الانعام: ٢.

(٥٩) التفسير الكبير ١٢: ١٥٣ - ١٥٤.

www.noormags.com

هو ما نبذه إلى الملائكة والرسل والأنبياء، والأجل المسمّى عنده هو الذي ستره الله عن الخلائق»(٦٠).

والنبذ إلى الملائكة كناية عن الآجال الطبيعية الموقوفة على كمال الاستعدادات الذاتية فلا يعترضها شيء، ومن ثم جاء التعبير عنها في سائر الروايات بالآجال الموقوفة أي المشترطة بعدم الطوارئ.

فقد روى مسعدة بن صدقة عنه عليه السلام قال: «الأجل الذي غير مسمّى موقوف، يقدم منه ما شاء ويؤخر منه ما شاء، وأما الاجل المسمّى فهو الذي ينزل مما يريد أن يكون من ليلة القدر إلى مثلها من قابل، فذلك قوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾»(٦١).

وعن حمران بن أعين عنه عليه السلام: «هما أجلان: أجل موقوف يصنع الله ما يشاء، واجل محتوم».

وفي رواية اخرى عنه: «وأما الاجل المسمّى فهو الذي سُمّي في ليلة القدر»(٦٢).

قال المفيد رحمه الله: «فتبيّن أن الآجال على ضربين: ضرب منها مشترط يصح فيه الزيادة والنقصان، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وما يُعمَّر من مُعمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾»(٦٣).

ذكر الطبرسي عن بعضهم: «هو ما يعلمه الله تعالى أن فلاناً لو اطاع لبقي إلى وقت كذا، وإذا عصى نقص عمره فلا يبقى؛ فالنقصان [يكون بشرط] وذلك مثبت في الكتاب وهو الكتاب المحفوظ»(٦٤).

قال علي بن ابراهيم: «وهو ردّ على من ينكر البداء»(٦٥).

وذلك لأن الآية الكريمة تدل على أن هناك آجالاً محدودة (حسب الاستعدادات الذاتية)، وهي المقدرة أزلياً في طبيعية الاشياء، لكنها مع الوصف قابلة للزيادة والنقصان حسب الطوارئ المعترضة؛ فلولا أن هناك حداً محدوداً، لما صدقت الزيادة والنقصان.

قال الزمخشري: «وفي الآية تأويل آخر ـ غير الذي ذكره اولاً من التسامح في التعبير ـ هو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلّا في كتاب، وصورته أن يكتب في اللوح: إن حج فلان أو غزا فعمره اربعون سنة، وإن حج وغزا فعمره

(٦٠) بحار الانوار ٤: ١١٧، ح٤٧.

(٦١) المصدر السابق: ١١٦، ح٤٤.

(٦٢) المصدر السابق، ح٤٦.

(٦٣) فاطر: ١١.

(٦٤) مجمع البيان ٨: ٣٠٠ ـ ٤٠٤.

(٦٥) البحار ٤: ١٠١، ح١١.

www.noormags.com

ستون سنة؛ فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عُمر، وإذا افرد احدهما فلم يتجاوز به الاربعون، فقد نقص من عمره الذي هو الغاية وهو الستون».

قال: «وإليه اشار رسول الله ﷺ في قوله: إن الصدقة و الصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار»(٦٦).

وعن كعب حين طُعن عمر: «لو أن عمر دعا الله لأخّر في أجله، فقيل له: أليس قد قال الله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ؟! قال: فقد قال الله تعالى: ﴿وما يُعمر من مُعمر..﴾»(٦٧).

قال الزمخشري: «والكتاب: اللوح، ويجوز أن يراد بكتاب الله علم الله تعالى»(٦٨).

وروى ثقة الاسلام الكليني بإسناده إلى الامام ابي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلّا صلة الرحم، حتى إن الرجل يكون أجله ثلاث سنين فيكون وصولاً للرحم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة، ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة فيكون قاطعاً للرحم، فينقصه الله عزوجلّ ثلاثين سنة ويجعل اجله إلى ثلاث سنين».

قال المولى الفيض الكاشاني: «والأحاديث بهذا الشأن كثيرة جدّاً».

وقوله تعالى: ﴿إنّ ذلك على الله يسير﴾ إشارة إلى الحفظ والزيادة والنقص(٦٩).

وروى الحميري بإسناده عن البزنطي عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام وذكر صلة الرحم قال: «قال ابو عبد الله عليه السلام: إن الرجل ليصل رحمه وما بقي من عمره إلّا ثلاث سنين، فيزيد الله تبارك وتعالى في عمره ثلاثين سنة؛ إن الله تبارك وتعالى يفعل ما يشاء، وإن الرجل ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاثون سنة، فيجعله الله له ثلاث سنين؛ إنّ الله يفعل ما يشاء»(٧٠).

قال تعالى: ﴿يسأله من في السماوات والارض كل يوم هو في شأن﴾(٧١).

إنها فطرية حاجة الذات التي تنبعث من طبيعة الاشياء، لافتقارها الذاتي إلى الغني على الاطلاق.

إنها حاجة الممكنات بأسرها إلى الواجب بالذات ليفيض عليها الوجود في

(٦٦) اخرجه احمد من طريق القاسم عن عائشة، والبيهقي في شعب الايمان. (ابن حجر في هامش الكشاف).

(٦٧) اخرجه اسحاق في آخر مسنده عن ابن عباس.

(٦٨) تفسير الكشاف ٣: ٦٠٤.

(٦٩) الصافي في التفسير ٢: ٣٩٤.

(٧٠) قرب الإسناد: ١٥٦.

(٧١) الرحمن: ٢٩.

www.noormags.com

حدوثها عند بدء الوجود، وفي استمرارها في مزاولة الوجود.

إنه تعالىٰ كما أفاض الوجود علىٰ الخلائق فكانوا موجودين، كذلك يفيض عليهم الوجود ليواصلوا المسيرة في ركب البقاء؛ وكل موجود إنما يستمد منه تعالىٰ ليديم له بركة الوجود في كل لحظة من لحظات وجوده، وهي لحظات متلاحقة متواصلة؛ كل لحظة هو في شأن، وكل آن هو في حال.

إنها شؤون واحوال طارئة في حياة كل موجود عبر البقاء، ومن ثم كان تعالىٰ انما يواصل افاضاته المتجدّدة حسب تجدد تلك الشؤون والاحوال، تجدداً ملحوظاً في جانب القابل لا الفاعل، أي في جانب تعلقات فيضه المستمر المتواصل علىٰ الموجودات.

قال الإمام امير المؤمنين عليه السلام: «الحمد لله الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه، لأنه كل يوم في شأن، من إحداث بديع لم يكن...»(٧٢).

قال علي بن ابراهيم في تفسير الآية: «يحيي ويميت ويرزق ويزيد وينقص»(٧٣).

قال الطبرسي: «﴿يسأله من في السموات والارض﴾ اي لا يستغني عنه أهل السموات والأرض... ﴿كل يوم هو في شأن﴾... عن أبي الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أن يغفر ذنباً ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين... وقال مقاتل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً»(٧٤).

وقال المولى الفيض الكاشاني: «قيل: هو ردّ لقول اليهود ذلك، أو قولهم: إنه قد فرغ من الامر»(٧٥).

وروي أن عبد الله بن طاهر (أمير خراسان) دعا الحسين بن الفضل (العلامة المفسر نزيل نيسابور) وقال له: «أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي: قوله تعالىٰ: ﴿فأصبح من النادمين﴾ ـ في قصة ابني آدم ـ وقد صح أن الندم توبة، وقوله تعالىٰ: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ وقد صح أن القلم جفّ بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، وقوله تعالىٰ: ﴿وأن ليس للإنسان إلّا ما سعىٰ﴾ فما بال الأضعاف؟ (اشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة﴾).

(٧٢) هذه الخطبة من جلائل خطبه عليه السلام رواها واملاها الحارث الاعور الهمداني، وكان من خاصته الاجلاء، وكان من الفقهاء المرموقين، وهو المخاطب بقوله عليه السلام:

ياحارِ همدان من يَمُتْ يرني
من مؤمن أو منافق قُبُلا

والخطبة رواها الكليني في الكافي ١: ١٤١، ح٧.

(٧٣) تفسير القمي ٢: ٣٤٥.

(٧٤) مجمع البيان ٩: ٢٠٢.

(٧٥) الصافي ٢: ٦٤٢.

www.noormags.com

فقال الحسين: يجوز ألّا يكون الندم توبة في تلك الأمة، ويكون توبة في هذه الأمة؛ لأن الله تعالى خصّ هذه الأمة بخصائص لم يشاركهم فيها الأمم. وقيل: إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله.

وأما قوله: ﴿وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى﴾ فمعناه: ليس له إلّا ما سعى عدلاً، ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً. (أي ان الآية تعني جانب الاستحقاق، الامر الذي لا يتنافى وجانب فضله تعالى الكبير).

وأما قوله: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ فإنّها شؤون يبديها، لا شؤون يبتديها.

فقام عبد الله وقبّل رأسه وسوّغ خراجه»[٧٦].

(٧٦) الكشاف ٤: ٤٤٨.

غير أن للآيات الثلاث محامل غير ما ذكره الحسين بن الفضل؛ أما ندم قابيل على قتل هابيل فلا دليل فيه على أنه ندم ندامة تائب؛ إذ قد يرتكب المجرم جناية يتورّط فيها فيندم على اتخاذه طريقة اوقعته في تلك الورطة، وليس ندماً على اصل ارتكاب الإثم، كما في حديث قوم هود، ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾ حينما رأوا نتائج السوء التي ترتبت على فعلهم الشنيع، ومن ثم لم ينفعهم الندم ﴿فأخذهم العذاب﴾[٧٧].

(٧٧) الشعراء: ١٥٧ ـ ١٥٨.

وأرى أن الندم بمجرده حتى ولو كان على ارتكاب الاثم لا يوجب سقوط الحدّ والعقاب، ما لم يظهر اثره العملي الكاشف عن رجوع العبد المذنب إلى ساحة مولاه الكريم رجوعاً عن عزيمة قاطعة؛ فإنّ الندم على الذنب هو النقطة الباعثة على التوبة وليس ذاتها، ما لم يتجسد في قول وعمل معاً[٧٨]، وليكون عمله هو الذي يدل على ندمه، فيصلح ما أفسده بالذنب. قال تعالى: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فإنّ الله يتوب عليه﴾[٧٩].

(٧٨) المراد من الندم القولي هو اجراء صيغة الاستغفار عن عزيمة صادقة. والمراد من العملي هو اصلاح ما أفسد.

(٧٩) المائدة: ٩.

وأما آية السعي: ﴿وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى﴾ فلا نظر فيها إلى تحديد المقدار في جزاء الأعمال، وإنما تعني همّة الانسان ومبلغ اهتمامه بشؤون حياته الانسانية الكريمة؛ فكلما ازدادت عنايته بهذا الشأن ازداد تعاليه على مدارج الكمال ونال شرفاً اكبر في الدارين.

وأما قوله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ فقد عرفت تفسيره في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأنه تعالى لا يزال في خلق جديد وإبداع ما لم يكن، فهو

www.noormags.com

ابتداء لا مجرد إبداء.

وقد مر كلام الصدوق أن له تعالىٰ أن يبدأ بشيء من خلقه فيخلقه قبل شيء، ثم يُعدم ذلك الشيء ويبدأ بخلق غيره، وجعل ذلك تفسيراً لوصفه تعالىٰ بالبداء(٨٠).

وللمولى صدر المتألهين الشيرازي بحث لطيف في هذه الآية جادت به قريحته الفياضة عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة ايام﴾(٨١).

قال: «لقد منّ الله علينا بالتحقيق عن أمثال هذه الآيات بما يُغني عن ارتكاب مخالفة الظاهر، أو صرف الكلام عن ظاهر تعبيره في متفاهم العرف العام».

قال: «وبيان ذلك يستدعي تمهيد مقدمات:

منها: أنّ الأمور الطبيعية ـ ويقال لها الطبيعيات ـ هي بحاجة في وجودها وتعقلها إلىٰ قابل وحركة وزمان؛ علىٰ خلاف المجردات المستغنية عن الأمور الثلاثة، سواء في الوجود ام في التعقّل.

ومنها: أن لكل من القسمين عالماً يخصّه، فللطبيعيات عالم الحس والشهادة، وللمجردات عالم الغيب.

ومنها: أن الأمر التدريجي الوجود من حيث هو تدريجي الوجود، يكون زمان بقائه عين زمان حدوثه.

وبعد، فإن السماء والارض وما بينهما، حيث كانت زمانية الوجود، تدريجية الحصول؛ فقد كانت مدة كونها البقائي عين مدة حدوثها الابتدائي الانشائي.

فهذه المدة المضروبة في الكلام الإلهي هي مدة بقاء وجودها الذي هو عين الحدوث».

قال: «ويشير إلىٰ هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿كل يوم هو في شأن﴾».

قال: «وأما حديث: جفّ القلم بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة(٨٢)، فهو بالقياس إلىٰ عالم آخر هو عالم الغيب الذي هو فوق عالم الحسّ والشهادة».

قال: «ولو نظرت حق النظر إلىٰ حقيقة كل أمر متغير في عالم الحسّ، تلك

(٨٠) رسالة التوحيد: ٣٣٥.

(٨١) السجدة: ٤.

(٨٢) علىٰ ما روته العامة، وليس من روايات الخاصة ما هو بهذا المضمون، حسبما عرفت.

www.noormags.com

الحقيقة التي هي وراء هذا العالم المحسوس، لوجدته حقيقة ثابتة وخارجة عن محدودة الزمان والمكان، ومترفّعة عن التجدد والتغير والحدثان.. فلو انخلعنا عن هذه الحواس الظاهرة، ونظرنا إلى تلك الحقائق أيضاً منخلعة عن الزمان والمكان، إذن لوجدنا الارض غير الارض، والسماوات غير السماوات، وكانت بأجمعها مطويات بيمين الحق تعالى»[٨٣].

(٨٣) التفسير المبين ٦: ٣١ ـ ٣٣، وقد سبق تلخيص كلامه.

شواهد وبينات

من الدلائل الواضحة على صحة أمر البداء ما وقع من تغيير في تقدير الهي، جاء ذكره في الكتاب العزيز فكان اكبر برهان على الإمكان بعد الوقوع.

من ذلك ما حكاه تعالى عن قوم يونس لما آمنوا، إذ كشف الله عنهم العذاب وقد كان قضي عليهم امراً محتوماً.

قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلّا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾[٨٤].

لولا هنا للتأنيب ومعناه النفي، أي لم تكن قرية آمنت عند معاينة العذاب فنفعها ايمانها سوى قوم يونس[٨٥].

والآية مسبوقة بحكاية أمر فرعون: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت﴾، فلم ينفعه إيمانه حينذاك: ﴿الآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين﴾[٨٦].

فعقّبها بقوله: إن الايمان عند معاينة العذاب لا ينفع شيئاً ولم ينفع قوماً، ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً * وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر احدهم الموت قال إني تبت الآن﴾[٨٧].

نعم استثني من هذا القانون الالهي العام مورد واحد لا ثاني له في تاريخ الامم، وهم قوم يونس لما آمنوا عند معاينة العذاب، وتقدير الهلاك عليهم، فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعهم إلى حين، وهو وقت انقضاء آجالهم الطبيعية.

وكانت هناك أسباب داعية لهذا الاستثناء الفريد في نوعه ذكرها ارباب

(٨٤) يونس: ٩٨.

(٨٥) ونظيره في هذا الاستثناء قوله تعالى: ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقيّة ينهون عن الفساد في الارض إلّا قليلاً ممن انجينا منهم﴾ (هود: ١١٦) قال الطبرسي: «معناه النفي، وتقديره: لم يكن من القرون من قبلكم قوم باقون. ﴿ينهون...﴾ أي كان يجب أن يكون منهم قوم بهذه الصفة» (مجمع البيان ٥: ٢٠١).

(٨٦) يونس: ٩١.

(٨٧) النساء: ١٨.

www.noormags.com

التفسير.

وهذا من البداء الواضح؛ إذ كان تغيير المشيئة بعروض موجبة، فقد رفع عنهم القضاء وكان قد ابرم ابراماً.

روىٰ العياشي باسناده إلىٰ محمد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في آية النسخ وآية المحو والاثبات، قال: «فيفعل الله ما يشاء ويحول ما يشاء مثل قوم يونس، إذ بدا له فرحمهم»(٨٨).

(٨٨) تفسير العياشي ١: ٥٥، ح٧٧، والبحار ٤: ١١٦، ح٤٢.

وقال الطبرسي عن قتادة وابن عباس برواية عطاء في تفسير الآية: «وقيل: معناه فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها، يريد بذلك: لم يكن هذا معروفاً لأمة من الامم كفرت ثم آمنت عند نزول العذاب وكشف عنهم، أي لم أفعل هذا بأمة قطّ إلا قوم يونس لما آمنوا عند نزول العذاب كشف عنهم العذاب بعدما تدلّىٰ عليهم»(٨٩).

(٨٩) مجمع البيان ٥: ١٣٤.

وقال تعالىٰ: ﴿ولقد أرسلنا إلىٰ أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضرّاء لعلّهم يتضرّعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾(٩٠).

(٩٠) الأنعام: ٤٢ ـ ٤٣.

كانت سيرة تلك الاقوام هي التمادي في الغي والضلال، ومن ثم يكون الهلاك والدمار، ولكن الله تعالىٰ لطفاً بهم عارض طريقهم بما لعله يؤنبهم ويوقظهم من الغفلة، فيؤوبوا إلىٰ الرشد والصلاح، فأخذهم بالبأساء والضرّاء لعلهم يتضرّعون، ولكن هيهات فقد قست القلوب وزاغت الأبصار.

وقوله: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ تأنيب لهم وتأسف علىٰ تعسفهم في الأمر.

وهذا مما يدل علىٰ أن الدعاء والابتهال إلىٰ الله، والتضرع والخشوع والاستغفار، لمما يغير من قضاء الله وقدره في الحياة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ادفعوا ابواب البلاء بالدعاء»(٩١).

(٩١) بحار الانوار ٩٠: ٢٨٨ ح٣.

وقال علي عليه السلام: «ادفعوا امواج البلاء بالدعاء»(٩٢).

(٩٢) المصدر السابق: ٣٠١ ح٣٧ و٣٨.

وقال الامام موسىٰ بن جعفر عليه السلام: «عليكم بالدعاء؛ فإن الدعاء والطلب إلىٰ الله عزّوجلّ يرد البلاء وقد قدّر وقضي فلم يبق إلّا إمضاؤه، فإذادُعي الله وسُئل صرف البلاء

www.noormags.com

صرفاً»(٩٣).

(٩٣) المصدر السابق: ٢٩٥، ح٢٣، و٢٩٨، ح٢٨.

الدعاء يردّ القضاء:

نعم، إن الدعاء يرد القضاء وقد ابرم ابراماً، كما ورد في الحديث.

روىٰ الطبرسي في مكارم الأخلاق بإسناد رفعه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ما من شيء أكرم علىٰ الله تعالىٰ من الدعاء».

وقال: «لا يرد القضاء إلّا الدعاء».

وقال: «البلاء معلّق بين السماء والأرض كالقنديل، فإذا سأل العبد ربّه العافية صرف الله عنه البلاء».

وعن الامام الصادق عليه السلام قال: «الدعاء يرد القضاء بعد ما أُبرم إبراماً».

وقال: «الدعاء يرد القضاء وينقضه كما يُنقض السلك وقد أُبرم إبراماً»(٩٤).

(٩٤) بحار الانوار ٩٠: ٢٩٤، ح٢٣، عن مكارم الاخلاق: ٣١١ ـ ٣١٥.

وأخرج أحمد باسناده إلىٰ ثوبان مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رفعه إلىٰ النبي قال: «لا يرد القدر إلّا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلّا البر، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»(٩٥).

(٩٥) مسند أحمد ٥: ٢٨٠.

ورواه ابن كثير في التفسير قال: «ورواه النسائي وابن ماجة من حديث سفيان الثوري».

قال: «وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر، وفي حديث آخر: إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والارض»(٩٦).

(٩٦) تفسير ابن كثير ٢: ٥١٩.

الاعتلاج: التقاتل والاصطراع، وهو كناية عن تقابلهما فلأيهما الغلب؟

القضاء المشروط:

قال تعالىٰ: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾(٩٧).

(٩٧) الاعراف: ٩٦.

قال المفيد: «فبين أن آجالهم كانت مشترطة في الامتداد بالبر، وفي الانقطاع بالفسوق».

وقال تعالىٰ فيما أخبر عن نوح في خطابه لقومه: ﴿استغفروا ربكم إنه كان

www.noormags.com

غفّاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويُمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً * ما لكم لا ترجون لله وقاراً * وقد خلقكم اطواراً﴾ (٩٨).

قال المفيد: «فاشترط لهم في مدّ الأجل وسبوغ النعم الاستغفار، فلما لم يفعلوه قطع آجالهم، وبتر أعمارهم، واستأصلهم بالعذاب، فالبداء من الله تعالىٰ يختص ما كان مشترطاً في التقدير، وليس هو الانتقال من عزيمة إلىٰ عزيمة، ولا من تعقب الرأي. تعالىٰ الله عما يقول المبطلون علوّاً كبيراً»(٩٩).

(٩٨) نوح: ١٠ ـ ١٤.

(٩٩) رسالة تصحيح الاعتقاد: ٣٥.

وبهذه المناسبة نذكر مقتطفات من رسالة كتبها بعض أفاضل علماء بغداد، جاء ذكرها في تفسير روح المعاني للسيد محمود الآلوسي مفتي العراق على عهد آل عثمان (ت ١٢٧٠هـ) قال: «وجدت في رسالة لبعض الأفاضل ألّفت في هذه المسألة (التقدير قابل للتغيير): إنه ما من شيء الا ويمكن تغييره وتبديله حتىٰ القضاء الالهي، واستدل بأمور، منها: أنه قد صحّ من دعاء النبي ﷺ في القنوت: وقني شرّ ما قضيت، وفيه طلب الحفظ من شر القضاء الأزلي، ولو لم يمكن تغييره ما صح طلب الحفظ منه.

ومنها: ما صح في حديث التراويح من عذره ﷺ عن الخروج اليها، وقد اجتمع الناس ينتظرونه لمزيد رغبتهم فيها بقوله: خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها؛ فإنه لا معنىٰ لهذه الخشية لو كان القضاء الأزلي لا يقبل التغيير؛ علىٰ أنه جاء في حديث فرض الصلاة ليلة المعراج ما هو ظاهر في سبق القضاء بأنها خمس صلوات مفروضة لا غير. فما معنىٰ الخشية بعد العلم بذلك لولا العلم بإمكان التغيير والتبديل؟

ومنها: ما صح أنه ﷺ كان يضطرب حاله الشريف ليلة الهواء الشديد، حتىٰ إنه لا ينام، وكان يقول في ذلك: أخشى أن تقوم الساعة، فإنه لا معنىٰ لهذه الخشية أيضاً مع اخبار الله تعالىٰ أن بين ايديها ما لم يوجد إذ ذاك، كظهور المهدي وخروج الدجال ونزول عيسىٰ وخروج يأجوج ومأجوج ودابة الارض وطلوع الشمس من مغربها مما يستدعي تحققه زمانا طويلاً، فلو لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أن القضاء يمكن تغييره، وأن ما قضي من اشراطها يمكن تبديله، ما خشي ﷺ من ذلك.

www.noormags.com

ومنها: أنه لولا إمكان التغيير للغي الدعاء؛ إذ المدعو به إما أن يكون قد سبق القضاء بكونه، فلابد أن يكون، وإلّا فمحال أن يكون، وطلب ما لابد أن يكون أو محال أن يكون لغو؛ مع أنه قد ورد الأمر به، قال تعالىٰ: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾.

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لا يمنع الحذر من القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر. ونسب إلىٰ جماعة من الصحابة والتابعين كانوا يتضرّعون إلىٰ الله تعالىٰ أن يجعلهم سعداء؛ فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنَّف وغيره عن ابن مسعود قال: ما دعا عبد قط بهذه الدعوات إلا وسع عليه في معيشته: يا ذا المن ولا يمن عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول، لا إله إلّا أنت ظهر اللاجئين وجار المستجيرين ومأمن الخائفين، إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً فامح عني اسم الشقاء وأثبتني عندك سعيداً، وإن كنت كتبتني عندك في الكتاب محروماً مقتراً عليّ رزقي، فامح حرماني ويسر رزقي، وأثبتني عندك سعيداً موفقاً للخير؛ فإنك تقول في كتابك الذي انزلت ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾»[١٠٠].

(١٠٠) روح المعاني ١٣: ١٥٣.

ميقات موسىٰ عليه السلام:

واعد الله موسىٰ ثلاثين ليلة لميقاته، وهكذا واعد موسىٰ قومه فذهب للميقات، لكنه تعالىٰ أتمّها بعشر فتمَّ ميقات ربه اربعين ليلة.

قال تعالىٰ: ﴿وواعدنا موسىٰ ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه اربعين ليلة﴾[١٠١].

(١٠١) الأعراف: ١٤٢.

وكان من جرّاء هذا التأخير في الوعد الأول أن اتخذ قوم موسىٰ طريقهم إلىٰ عبادة العجل: ﴿واتخذ قوم موسىٰ من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار﴾[١٠٢].

(١٠٢) الأعراف: ١٤٧.

إذ استبطأوا رجوع موسىٰ في الوقت المضروب علىٰ ما وعدهم من الرجوع بأمر الله، وهو بيان تفاصيل الشريعة ونزول التوراة، فظنوا أنه أخلف الوعد ولا يأتيهم بما وعدهم، ومن ثم اقترحوا هم طريقة لأداء مراسيم العبادة وتشريع

www.noormags.com

الدين، وكان صنعهم للعجل رمزاً لهذا الاتجاه

ومن ثمّ وبخهم موسىٰ علىٰ استعجالهم في الأمر ﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم﴾ أي استعجلتم في أمر الربوبية والعبادة والتشريع.

وعلىٰ أيّة حال فتتميم الثلاثين بالعشر كان من البداء في الوعد، ولعل الحكمة فيه كانت هي فتنة القوم ليبتليهم فيعلم من يخافه بالغيب؛ ومن ثم قال موسىٰ بعد ذلك وبعد أن أخذتهم الرجفة: ﴿إن هي إلّا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي بها من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ (١٠٣).

(١٠٣) الأعراف: ١٥٥.

ذبح اسماعيل عليه السلام:

كان إبراهيم الخليل عليه السلام أُري في المنام ـ ومنامات الانبياء وحي صادق ـ أن يذبح ابنه اسماعيل، ﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ما ذا ترىٰ﴾ (١٠٤).

(١٠٤) الصافات: ١٠٢.

﴿بلغ معه السعي﴾ أي بلغ أشده وأمكنه السعي مع أبيه في العمل والاجتهاد. قيل: كان ابن ثلاث عشرة سنة.

﴿إني أرىٰ﴾ أي هكذا يتراءى لي في المنام أني كُلّفت ذبحك؛ الامر الذي يدل علىٰ أن هذا الترائي كان يتكرر عليه في ليالٍ متعاقبة، ويعني التأكيد له والعناية به.

قال اسماعيل: ﴿يا أبتِ افعل ما تؤمر﴾، فإنا جميعاً طوع اوامره تعالىٰ ومسلمون لمشيئته.

﴿فلما أسلما وتلّه للجبين﴾ شروعاً في امتثال امره تعالىٰ، عند ذلك ﴿ناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا﴾، وكان المطلوب ظهور اخلاصهما لله، وتسليمهما المطلق لأمره تعالىٰ، الامر الذي ظهر كمال الظهور، وإذ تحقق الغرض من الامر سقط التكليف.

﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ أي ابتلاء لإخلاص العبودية ما فوقه ابتلاء.

﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ أي بدلناه بمذبوح آخر، وهو من تبديل تكليف بآخر مكانه.

www.noormags.com

ونفس هذا الفداء دليل على تكليف سابق استبدل بتكليف آخر جديد، وهو من النسخ في التكليف أو البداء فيه.

البداء في شأن إسماعيل

ما روي عن الامام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل»(١٠٥).

هل هو اسماعيل ابنه؟ وكيف حصل فيه البداء؟ ام اسماعيل أبوه الذبيح عليه السلام؟

روى زيد النرسي عن عبيد بن زرارة عن الامام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «ما بدا لله بداء أعظم من بداء بدا له في إسماعيل ابني».

ثم روي عنه عليه السلام أنه قال: «إني ناجيت الله ونازلته في اسماعيل ابني أن يكون من بعدي، فأبى ربي إلّا أن يكون موسى ابني»(١٠٦).

وروى الصدوق مرسلاً عنه عليه السلام قال: «ما بدا لله بداء كما بدا له في اسماعيل ابني.. يقول: ما ظهر لله أمر كما ظهر له في اسماعيل ابني إذ اخترمه قبلي؛ ليعلم بذلك أنه ليس بإمام بعدي»(١٠٧).

اخترمه: أي اهلكه. والتفسير الذي جاء في الحديث هو من الصدوق وليس من كلام الامام، ولعله من التفسير الشائع آنذاك.

قال المفيد: «وكان اسماعيل اكبر إخوته، وكان أبوه عليه السلام شديد المحبة له والبر به والاشفاق عليه، وكان قوم من الشيعة يظنون أنه القائم بعد ابيه والخليفة له من بعده؛ إذ كان اكبر اخوته سناً ولميل أبيه اليه وإكرامه له، فمات في حياة ابيه بالعريض... ولما مات اسماعيل عليه السلام انصرف عن القول بإمامته بعد أبيه من كان يظن ذلك»(١٠٨).

قلت: هذا التفسير بهذا الوجه مما لا نستطيع الموافقة عليه:

أولاً: كانت الأئمة الاثنا عشر مسجلة اسماؤهم، مضبوطة نعوتهم وألقابهم، محفوظة سماتهم وخصائصهم في سجل الأزل واحداً بعد واحد، مكتوبة بقلم النور على صفحة اللوح المحفوظ بما لا تبديل فيه ولا تغيير؛ الامر الذي كانت

(١٠٥) بحار الانوار ٤٧: ٢٦٩، ح٤١، ٤٢، و٤: ١٢٢، ح٦٩.

(١٠٦) هكذا رواه المفيد في تصحيح الاعتقاد: ٢٥.

(١٠٧) بحار الانوار ٤ : ١٠٩، ح٢٦، عن كتاب التوحيد للصدوق: ٣٣٦، ح١٠.

(١٠٨) ارشاد المفيد: ٢٠٩و ٢١٠، من مجموعة (مصنفات الشيخ المفيد)، والبحار ٤٧: ٢٤٢.

www.noormags.com

تعلمه خواص الشيعة الأبرار، بل خواص اصحاب الرسول صلى الله عليه وآله، وقد تعددت رواته من الأصحاب والتابعين لهم بإحسان؛ فكيف يا ترىٰ كان يخفى علىٰ مثل الامام الصادق الخبير البصير، حتىٰ سأل ربه أن يجعله الامام بعده، فأبى الله ذلك؟!.

ثانياً: كيف يسأل مثل الامام المعصوم ربّه تعالىٰ أن يغير من عزيمته بشأن الإمامة، والإمامة ذات شأن خطير؟ الله اعلم حيث يجعل رسالته؛ وهل هذا إلّا تدخل في شؤون خلافة الله الكبرىٰ التي لا يعلم موضعها سوىٰ الله!

إن أدب العبودية المحضة ـ والأئمة الهداة المعصومون كانوا علىٰ أتمها وأكملها ـ ليقضي بعدم التدخل في شؤون الربوبية القاهرة ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾(١٠٩).

(١٠٩) الأنعام: ١٨.

ثالثاً: هل كان ذلك ـ كما في تفسير الصدوق: «اخترمه قبلي ليعلم أنه ليس بإمام بعدي» ـ يحتاج إلىٰ إهلاك انسان؟ هلّا كان يمكن معرفة ذلك بنص صريح قاطع؟ اما المنحرفون في العزيمة فلا ينفعهم ـ كما لم ينفعهم ـ حتىٰ الاحترام!

الامر الذي دعا مثل شيخنا المفيد ـ ذلك المحقق النابه ـ أن ينكر مثل هذا التفسير رأساً، ويفسر البداء بشأن إسماعيل هذا بوجه آخر، قال: «وقول أبي عبد الله عليه السلام: ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل، فإنما أراد به ما ظهر من الله تعالىٰ فيه من دفاع القتل عنه، وقد كان مخوفاً عليه من ذلك مظنوناً به، فلطف له في دفعه عنه؛ وقد جاء الخبر بذلك عن الصادق عليه السلام أنه قال: كان القتل قد كتب علىٰ إسماعيل مرتين، فسألت الله في دفعه عنه فدفعه»(١١٠).

(١١٠) تصحيح الاعتقاد: ٢٥.

ولاشك أن الدعاء يرفع البلاء، أو يدفع القضاء وقد أُبرم ابراماً حسبما عرفت.

هذا، وكتاب زيد النرسي قد طعن فيه بعض اصحاب التراجم، ولم يعرف اسمه ونسبه ولا موضعه من صحبة الامام الصادق عليه السلام، ولعل روايته أمثال هذه الاحاديث تنبئك عن مبلغ معرفته بمقام الإمامة وشؤون الربّ تعالىٰ(١١١).

(١١١) راجع: كلام المجلسي بشأن كتابه في مقدمة للبحار ١: ٤٣.

ويبدو من الصدوق أيضاً ترديده في صحة الحديث، في اصله وفي

www.noormags.com

تفسيره معاً، كما يظهر من آخر كلامه حسبما نذكر.

ثم إن الصدوق عليه الرحمة بعد أن أورد الحديث السابق وفسره بما عرفت، أورد حديثاً آخر مستبدلاً الابن بالأب، رواه من طريق أبي الحسين الأسدي، واستغر به.

قال: «وقد روي لي من طريق أبي الحسين الاسدي رضوان الله عليه في ذلك شيء غريب، وهو أنه روي أن الصادق عليه السلام قال: ما بدا لله بداء كما بدا له في اسماعيل أبي؛ إذ أمر أباه بذبحه ثم فداه بذبح عظيم».

وعقبه بقوله: «وفي الحديث على الوجهين جميعاً عندي نظر، إلّا أنّي أوردته لمعنى لفظ البداء والله الموفق للصواب»(١١٢).

وهذا يدل على ترديده في صحة الحديث وعدم وثوقه بأصل الصدور فكيف بتفسيره؟

نعم ذكر المجلسي بعد نقل ذلك عن الصدوق: «لا استبعاد في صحة الخبرين اللذين نفاهما»(١١٣).

وهكذا ورد في شأن الامام الحادي عشر أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام لما توفي أبو جعفر محمد بن علي أخوه الاكبر في حياة والده الهادي عليه السلام؛ قال ابو الحسن الهادي مخاطباً لابنه أبي محمد: «يابني، احدث لله شكراً فقد أحدث فيك أمراً»(١١٤).

وروى المفيد باسناده إلى أبي هاشم الجعفري(١١٥) قال: «كنت عند أبي الحسن عليه السلام بعد ما مضى ابنه أبو جعفر، وإني لأفكّر في نفسي، أريد أن اقول: كأنهما ـ أعني ابا جعفر وأبا محمد ـ في هذا الوقت كأبي الحسن موسى وإسماعيل ابني جعفر بن محمد عليهم السلام، فأقبل عليّ أبو الحسن عليه السلام قبل أن أنطق فقال: نعم يا أبا هاشم، بدا لله في أبي محمد بعد أبي جعفر ما لم يكن يُعرف له، كما بدا في موسى بعد مضيّ إسماعيل ما كشف به عن حاله، وهو كما حدثتك نفسك، وإن كره المبطلون. أبو محمد ابني الخلف من بعدي، عنده علم ما يُحتاج إليه، ومعه آلة الإمامة»(١١٦).

قال الشيخ بعد رواية الحديث كما رواه المفيد: «ما تضمن الخبر من قوله: بدا لله في محمد كما بدا له في إسماعيل، معناه: ظهر من الله وأمره في أخيه

(١١٢) كتاب التوحيد: ٣٣٦، ح١١.

(١١٣) بحار الأنوار ٤: ١٠٩.

(١١٤) رواه الشيخ في كتاب الغيبة: ٢٠٣، ح١٧٠، والمفيد في الإرشاد: ٣٣٦، والطبرسي في إعلام الورى: ٣٥٠، راجع البحار ٥٠: ٢٤٣، ح١٢، و٢٤٤، ح١٥.

(١١٥) هو داود بن القاسم بن إسحاق الثقة الجليل من آل جعفر الطيار، صحب الرضا والجواد والهادي والعسكري عليهم السلام سكن بغداد وكان عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام، وكان مقدماً عند السلطان أيضاً.

(١١٦) الإرشاد: ٣٣٧، ورواه الشيخ في الغيبة: ٢٠٠، ح١٦٧.

www.noormags.com

الحسن ما زال الريب والشك في امامته؛ فإن جماعة من الشيعة كانوا يظنون أن الأمر في محمد من حيث كان الاكبر، كما كان يظن جماعة أن الأمر في إسماعيل دون موسىعليه السلام، فلما مات محمد ظهر من أمر الله فيه وأنه لم ينصبه إماماً، كما ظهر في إسماعيل مثل ذلك، لا أنه كان نصّ عليه ثم بدا له في النص على غيره؛ فإن ذلك لا يجوز على الله العالم بالعواقب»(١١٧).

وفي زيارة الإمامين الهمامين الهادي والعسكريعليهما السلام هكذا نجد: «السلام عليكما يا من بدا لله في شأنكما»، وهذا حسب رواية ابن قولويه في كامل الزيارات(١١٨).

وقد اورد الصدوق هذه الزيارة بعينها في الفقيه سوى أنه اسقط هذه العبارة(١١٩).

وفي المزار الكبير نسب هذه الزيارة إلى المفيد، إلّا أنه بدّل قوله: «يا من بدا لله في شأنكما» بقوله: «يا أميني الله»(١٢٠).

قال العلامة المجلسي: «أما البداء بشأن أبي محمد الحسنعليه السلام فقد مضى في باب النصّ عليه، حيث الروايات الكثيرة بوقوع البداء فيه وفي اخيه السيد محمد الذي كان أكبر منه وتوفّي قبله كما كان في موسى وإسماعيل، على ما عرفت.

وأما وقوع البداء بشأن أبي الحسن الهاديعليه السلام فلم نر فيه شيئاً يدل على البداء، فلعلّه وقع فيه أيضاً شيء من هذا القبيل، أو من القيام بالسيف أو غيرهما، أو نسب هذا البداء إلى الاب أيضاً؛ لأن التنصيص على الإمامة يتعلق به»(١٢١).

ملحوظة: ليس البداء الوارد بشأن الامام موسى بن جعفر، وكذا الامام أبي محمد العسكريعليهما السلام من البداء المصطلح الذي هو تغيير مشيئته تعالى حسب تغيير المصالح والمقتضيات وإنما هو بداء ظاهري لا غير. قال سيدنا الأستاذ العلامة الفانيدام ظله: «فما ورد من قولهم: أحدث لله شكراً ناظر إلى إزالة مزعومة كان يزعمها بعض الشيعة، وليس في هذا التعبير دلالة على تغيير إرادة الله تعالى»(١٢٢).

(١١٧) الغيبة: ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(١١٨) كامل الزيارات: ٣١٣.

(١١٩) من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٦٨.

(١٢٠) المزار الكبير: ١٨٢ ـ ١٨٣.

(١٢١) بحار الانوار ٩٩: ٦٣.

(١٢٢) راجع: رسالته في البداء ٩٦ ـ ٩٨.

www.noormags.com

حديث الامام الرضا مع سليمان المروزي متكلم خراسان:

روىٰ الصدوق بإسناد يرتضيه عن أبي عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الانصاري الكجي[١٢٣] قال: «حدثني من سمع الحسن بن محمد النوفلي[١٢٤] يقول: قدم سليمان المروزي متكلم خراسان[١٢٥] علىٰ المأمون فأكرمه ووصله، ثم قال له: إن ابن عمي علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام قدم عليّ من الحجاز، وهو يحب الكلام وأصحابه» ثم سأله أن يناظر الإمام لعله يقطعه عن حجته، فأجابه إلىٰ ذلك.

فوجّه المأمون إلىٰ الإمام وأخبره بقدوم رجل من أهل مرو، وأنه واحد خراسان من اصحاب الكلام، قال «فإن خفّ عليك أن تتجشّم المصير الينا فعلت».

فنهض الامام عليه السلام للوضوء وقال لاصحابه: «تقدّموني»، وفيهم عمران الصابي[١٢٦] والحسن بن محمد النوفلي رواي الحديث. قال: «فصرنا إلىٰ الباب، فأخذ ياسر وخالد بيدي فأدخلاني علىٰ المأمون، فلما سلّمت قال: أين أخي أبو الحسن أبقاه الله تعالىٰ؟ قلت: خلّفته يلبس ثيابه، وأمرنا أن نتقدم. ثم قلت: يا أمير المؤمنين، إن عمران مولاك معي وهو علىٰ الباب. قال: ومن عمران؟ قلت: الصابي الذي اسلم علىٰ يدك. قال: فليدخل. فدخل فرحّب به المأمون،ثم قال له: يا عمران، لم تمت حتىٰ صرت من بني هاشم. قال: الحمد لله الذي شرّفني بكم، يا امير المؤمنين. فقال له المأمون: يا عمران، هذا سليمان المروزي متكلّم خراسان. قال عمران: يا امير المؤمنين، إنه يزعم واحد خراسان في النظر وينكر البداء. قال: فلِمَ لا تناظروه[١٢٧]؟ قال عمران: فذلك إليه. فدخل الرضا عليه السلام وقال: في أي شيء كنتم؟ قال عمران: يابن رسول الله هذا سليمان المروزي. فقال له سليمان: أترضىٰ بأبي الحسن وبقوله فيه؟ فقال عمران: قد رضيتُ.. علىٰ أن يأتيني بحجة احتج بها علىٰ نظرائي من أهل النظر. قال المأمون: يا ابا الحسن، ما تقول فيما تشاجرا فيه؟» فتوجه الامام عليه السلام إلىٰ سليمان وقال: «وما أنكرت من البداء يا سليمان؟ والله عزّوجلّ يقول: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه ولم يك شيئاً﴾ ويقول: ﴿هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، ويقول: ﴿بديع السموات والأرض﴾،

(١٢٣) صاحب كتاب الرجال المعروف. كانت داره مرتعاً للشيعة ولرؤاد العلم. قال النجاشي: «كان ثقة عيناً، وطريق الصدوق إليه صحيح» و «كجّ» هو «كشّ»: قرية علىٰ ثلاث فراسخ من جرجان علىٰ رأس جبل.

(١٢٤) هو الحسن بن محمد الهاشمي النوفلي. له روايات كثيرة في باب المناظرات والنصوص علىٰ الأئمة اوردها الصدوق في التوحيد، والكليني في باب النكت والنتف وفي الروضة. روىٰ عنه احمد بن محمد بن ابي نصر البزنطي.

(١٢٥) ولعلّه هو سليمان بن حفص (وقد صحف في بعض الكتب إلىٰ سليمان بن جعفر). عده الشيخ من اصحاب الرضا عليه السلام واعتمده الصدوق والكليني. وبقي حتىٰ أدرك الهادي عليه السلام.

(١٢٦) لم نعثر له علىٰ ترجمة. ويبدو انه كان من الموالي ومن العلماء الذين اسلموا وكانوا اصحاب نظر واختيار.

(١٢٧) هكذا ورد الفعل مجرداً من النون، وصوابه «تناظرونه».

www.noormags.com

ويقول: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾، ويقول: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾، ويقول: ﴿وآخرون مُرجونَ لأمر الله إما يعذّبهم وإما يتوب عليهم﴾. ويقول: ﴿وما يُعمر من مُعمر ولا يُنقص من عمره إلّا في كتاب﴾ (١٢٨).

قال سليمان: هل رويت فيه من آبائك شيئاً؟ قال: نعم، رويت عن أبي عن ابي عبد الله عليه السلام أنه قال: إنّ لله عزّوجلّ علمين: علماً مخزوناً مكنوناً لا يعلمه إلّا هو، من ذلك يكون البداء، وعلماً علّمه ملائكته ورسله؛ فالعلماء من أهل بيت نبيّنا يعلمونه. قال سليمان: أحبّ أن تنزعه لي من كتاب الله عزّوجلّ. قال: قول الله عزّوجلّ لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿فتولّ عنهم فما أنت بملوم﴾ (١٢٩)، أراد إهلاكهم ثم بدا لله تعالى فقال: ﴿وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين﴾.

قال سليمان: زدني، جُعلت فداك».

فذكر له الامام عليه السلام قصة الملك الاسرائيلي الذي أوحى الله إلى نبيّه فيه أن ابلغ فلاناً الملك أني متوفيه، فجعل الملك يتضرع إلى الله، حتى دفع الله عنه السوء. ثم التفت الإمام عليه السلام إلى سليمان وقال له: «أحسبك ضاهيت اليهود في هذا الباب. قال: أعوذ بالله من ذلك، وما قالت اليهود؟ قال: قالت اليهود: ﴿يد الله مغلولة﴾؛ يعنون أن الله تعالى قد فرغ من الأمر فليس يحدث شيئاً، فقال الله عزّوجلّ: ﴿غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾ ولقد سمعت قوماً سألوا أبي موسى بن جعفر عليه السلام عن البداء، فقال: وما ينكر الناس من البداء، وأن يقف الله قوماً يرجيهم لأمره (١٣٠).

قال سليمان: ألا تخبرني عن ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ في أي شيء أُنزلت؟ قال: يا سليمان، ليلة القدر يقدّر الله عزّوجلّ فيها ما يكون من السنة إلى السنة، من حياة أو موت أو خير أو شر أو رزق، فما قدّره في تلك الليلة فهو من المحتوم. قال سليمان: الآن قد فهمتُ جعلت فداك، فزدني. قال: يا سليمان، إن من الأمور أموراً موقوفة عند الله عزّوجلّ، يقدّم منها ما يشاء ويؤخّر ما يشاء، ويمحو ما يشاء. يا سليمان، إن علياً عليه السلام كان يقول: العلم علمان، فعلم علمه الله وملائكته ورسله، فما علّمه ملائكته ورسله فإنه يكون ولا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم عنده مخزون لم يُطلع عليه أحداً من خلقه، يقدّم منه ما يشاء ويؤخّر منه ما يشاء، ويمحو ما يشاء

(١٢٨) هذه الآيات تدلنا على أنه تعالى هو المبدئ المعيد، المبدع لا على مثال ولا سابقة خيال، يتصرف في خلقه كيف يشاء، وهو الحكيم الخبير. قال علي عليه السلام: «أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، بلا رويّة أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها. أحال الأشياء لأوقاتها، ولأم بين مختلفاتها، وغرّز غرائزها، وألزمها اشباحها عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها». (نهج البلاغة، خ١).

(١٢٩) إذ لم يكن الله ليعذّبهم ورسوله صلى الله عليه وآله فيهم، فأمره تعالى بترك ديارهم والخروج من بينهم، وهو ما يعني أن الله أراد تعذيبهم؛ ولكن الآية بعدها دلّت على حصول البداء فيهم، حيث كفى التذكير لهم بدل التعذيب. وهكذا روى الصفار عن الامام الصادق عليه السلام في تفسير الآية (بحار الأنوار ٤: ١١٠، ح٢٨).

(١٣٠) وهذا من أكبر فوائد العقيدة بالبداء له تعالى؛ إذ يجعل من الناس على رجاء من أمرهم فلا يقنطوا من رحمة الله، ويرون في الدعاء والابتهال إلى الله والاستغفار

www.noormags.com

ويثبت ما يشاء».

فالتفت سليمان إلى المأمون وقال: «يا أمير المؤمنين، لا أنكر بعد يومي هذا البداء ولا أكذب به إن شاء الله»(١٣١).

تلخيص البحث في سطور:

إلى هنا قد انتهى البحث بنا إلى النتائج التالية:

١ ـ أن مسألة البداء مسألة إسلامية عريقة تتعلق بجانب العقيدة وأن الله لا يزال في خلق جديد وانه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

٢ ـ أنه تعالى يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، وهذان المحو والإثبات إنما يكونان حسب تغير المصالح والمقتضيات المتجددة عبر الزمان.

٣ ـ أن علمه تعالى بهذه المقتضيات المتجددة، على خلاف مجاريها الطبيعية الاولى، هو الذي أوجب تغييراً في مشيئته تعالى وتبديلاً في قضائه.

٤ ـ أن هذا هو علمه تعالى الفعلي الحاصل بحصول الاشياء، إذ علمه تعالى بذوات الاشياء علماً فعلياً إنما هو بظهور الأشياء وحضورها لدى ساحة قدسه تعالى، فكان علمه بها عين وجودها وظهورها في عرصات الوجود.

٥ ـ أن هذا لا ينافي علمه تعالى الذاتي القديم المتعلق بالأشياء قبل وجودها؛ فإن ذاك علم تعلق ازلاً بالوصف، وهذا علم يتعلق بالذوات فيما لا يزال.

٦ ـ أنه لمّا كان العلم من ذوات الإضافات، كان التغيير والتبديل في احد طرفي الإضافة لا يستلزم تغيراً في طرفها الآخر، نظير الإفاضة تكون مستمرة، وتغيير المستفيض لا يستدعي تغييراً في المفيض.

٧ ـ أنه كان للدعاء ـ نتيجة لما سبق ـ موضعه من تغيير القضاء، وأن للإنابة والاستغفار موضعهما من رفع البلاء، فلا يأس من رحمته تعالى ولا قنوط.

٨ ـ أن ما ورد بشأن الإمامين الكاظم والعسكري عليهما السلام من التعبير بالبداء، هو تعبير ظاهري وليس من البداء المصطلح، ولا كان مما قصد البحث عنه في هذا المجال.

لديه ما يمكن من تغيير القضاء بشأنهم، مهما كانت ذنوبهم عظاماً.

(١٣١) عيون أخبار الرضا: ٢: ١٥٩ ـ ١٦٢، ب ١٣، ط ـ الأعلمي.

www.noormags.com